شاؤول ستر (*)

# السياسة المركّبة في الشعر المشرقي الحديث

يتخبط الأدب العبري المعاصر في أزمة عميقة. وهي أزمة متصلة بالأزمة التي تعيشها الصهيونية في العقدين الأخيرين. منذ بداياته الأولى، كان الأدب العبري الحديث مرتبطا، ارتباطا وثيقا، بالحركة القومية اليهودية، أي: الصهيونية. وقد بدأت الكتابة العبرية الحديثة، فعليا، قبل إنشاء الحركة الصهيونية، منذ النصف الأول من القرن الـ ١٩: صحف عبرية، سير ذاتية عبرية وقصص وروايات كُتبت وطُبعت في تلك الفترة، قبل أن يكتب بينسكر مؤلفه «تحرر ذاتي» (١٨٨١) وقبل أن يكتب هرتسل «دولة اليهود» (١٨٩٦). ويمكن القول، عمليا، إن الأدب العبري الحديث هيّأ الأرضية لنشوء الصهيونية السياسية، بمعنى أن الأدب قد سبق السياسة. «انبعاث اللغة العبرية» كان أحد المشاريع المركزية لحركة الانبعاث القومي ـ تحويل العبرية من لغة نصّيّة، لغة قدسية تستخدم للقراءة والدراسة والصلاة، إلى لغة محكية ولغة واقع معاش ـ فألقيت مهمة بلورة هذه اللغة على كاهل الأدب العبري الحديث. والروايات العبرية الأولى، من النصف الثاني من القرن الـ ١٩، كُتبت قبل ترسخ اللغة العبرية الحديثة فتخيّل كتابها حوارات شخصية ولغة داخلية تصور الأفكار والمشاعر بالعبرية، حتى قبل وجودها الفعلي في الييشوف اليهودي في فلسطين. وفي المقابل، شكّل إعداد أنطولوجيا أدبية بالعبرية عنصرا مركزيا في سيرورة العلمنة التي حصلت في المجتمع اليهودي ابتداء من نهاية القرن الـ ١٨، وهي السيرورة التي كانت في صلبها المطالبة بتحويل اليهودية من دين إلى ثقافة (ثم إلى ثقافة قومية، لاحقا): فبدلا من النصّـيّة العبرية الطقسية، كانت ثمة حاجة إلى إيجاد كتابة عبرية مؤطرة في جانرات أدبية أوروبية، كتابة تثبت اليهودية وتكرسها كثقافة، بالمفهوم الحديث. وعلى هذا، شكّل الأدب العبري الحديث، وفي مقدمته النثر العبري الذي كان مركزيا ضمنه،

(*) أستاذ جامعي إسرائيلي.

**في مركز دفق الانتاج الشعري الراهن مجموعة «عرص الشاعرية» ـ مجموعة من الشعراء أطلقت نشاطها قبل نحو ثلاث سنوات بتنظيم أمسيات شعرية يحضرها جمهور غفير. هؤلاء الشعراء، في غالبيتهم، أبناء الجيل الثالث من اليهود الذين هاجروا من دول عربية أو إسلامية، يكتبون شعر الاحتجاج الاجتماعي من منطلقات إثنية، أو طبقية أحيانا. إنه شعر أدائي، تشكل تأديته الصوتية جزءا أساسيا لا يتجزأ منه، شعر يُكتب بلغة مباشرة وإعلامية بامتياز، ينهل من تراث الشعر غير الكنسي، «المتدني» ظاهريا، وخاصة شعر الاحتجاج الأفرو-أميركي ـ الراب، الهيب هوب والكلام المحكيّ المغنّى (سبوكن وورد).**

لسان حال التيار المركزي في الصهيونية: احتل موقعا مركزيا في بناء الثقافة، الذي شكل أساسا لبناء الأمة. أما اليوم، وحيال الأزمة التي تتخبط فيها الصهيونية إثر احتدام تناقضاتها الداخلية وتفكك النموذج الكلاسيكي منها (الصهيونية)، فقدْ خسرت الكتابة النثرية العبرية مكانتها المركزية في بناء الثقافة الإسرائيلية.

لكنّ الكتابة الروائية ليست في أحسن حال، ليس ضمن الثقافة العبرية وحدها فقط. فثمة للتطورات التكنولوجية العميقة والبعيدة الأثر إسقاطات مباشرة على الوسائط المختلفة التي يتم الانتاج الثقافي من خلالها. والرواية، أي النثر الخيالي الطويل، الذي شكّل واسطة الانتاج الثقافي المركزية خلال القرنين الـ ١٨ و الـ ١٩، تفقد الآن موقع الصدارة الذي كانت تتبوأه، لصالح وسائط أكثر «شبابية»، من التصوير والسينما وحتى الفيديو ـ كليب والشبكات الاجتماعية. ففي عصر تدفق المعلومات، بغزارة وسرعة وبصورة غير منظمة، تعدد القنوات الفضائية غير المحدود، تشتيت الأفكار والإلهاء المتواصلين، لم تعد الكتابة الروائية هي الواسطة التي تستخدمها الثقافة للبحث والتقصي وفهم ذاتها: جمهور قراء النثر الطويل آخذ في التناقص ونوع القراءة الذي يتطلب رواية سميكة يبدو غير ملائم للعصر الراهن. وبالفعل، فالرواية كانت قد بلغت مجدها إبان ظهور وانتشار القومية الحديثة، الرأسمالية الإنتاجية ومصطلحات التسلية، أوقات الفراغ وحُكم القيمة (الحكم التقديري) التي أدخلتها البرجوازية الأوروبية. والآن، مع اهتزاز هذه كلها ـ في أعقاب سيرورات العولمة العابرة للقوميات، ترسخ الرأسمالية الاستهلاكية واقتصاد المعلومات، طمس الحدود بين العمل وأوقات الفراغ والاستئناف على نافذية الـ»قيمة» الفنية عموما ـ أصبحت الرواية العبرية، بِكر أبناء القومية اليهودية، في حال تراجع.

وفي موازاة الرواية، يبدو أن الشعر ينبعث إلى حياة جديدة. فهذا الجانر العتيق، تحديدا، الذي اُعتُبر مرات عديدة في الماضي متقادماً وقد عفا عليه الزمن، ينهض كالعنقاء ويستأثر باهتمام ثقافي من جديد. وقد أصبح الشعر، في الثقافة الإسرائيلية المعاصرة، واحدا من ميادين الفعل الثقافي الأكثر حيوية. فخلال العقد الأخير، حصل تزايد واتساع مفاجئان ومميَّزان في الأمسيات الشعرية التي تجتذب جمهورا غفيرا وتتحول، مرات غير قليلة، إلى «حدث» ثقافي يتجاوز مسار الأمسيات الأدبية، المعروف والمنفِّر. دواوين شعر جديدة تصدر بوتائر مرتفعة، ورغم أن جمهور قراء الشعر بقي محدودا، نسبيا، وأقل من جمهور قراء النثر، إلا أن الواضح تماما أن الفعل الثقافي الأكثر جدية وأهمية في ميدان الإنتاج اللغوي، سواء من الناحية الاجتماعية أو الفنية، يحصل اليوم في مجال الشعر. غير أن هذا الفعل يتجاوز حدود الشعر ـ أولا، لأنه يسعى إلى تغيير حدود الشعر، منظوماته وجمهوره، وثانيا، لأن هذا الفعل الشعري يعالج بعضاً من القضايا السياسية المركزية في الحياة العامة الإسرائيلية وهو اشتغال يدلل، كما سأبيّن، على بعض التناقضات المعتملة في هذا الفعل.

في مركز دفق الانتاج الشعري الراهن مجموعة «عرص الشاعرية» ـ مجموعة من الشعراء أطلقت نشاطها قبل نحو ثلاث سنوات بتنظيم أمسيات شعرية يحضرها جمهور غفير. هؤلاء الشعراء، في غالبيتهم، أبناء الجيل الثالث من اليهود الذين هاجروا من دول عربية أو إسلامية، يكتبون شعر الاحتجاج الاجتماعي من منطلقات إثنية، أو طبقية أحيانا. إنه شعر أدائي، تشكل تأديته الصوتية جزءا أساسيا لا يتجزأ منه، شعر يُكتب بلغة مباشرة وإعلامية بامتياز، ينهل من تراث الشعر غير الكنسي، «المتدني» ظاهريا، وخاصة شعر الاحتجاج الأفرو- أميركي ـ الراب، الهيب هوب والكلام المحكيّ المغنّى (سبوكن وورد). ويدلل اسم المجموعة على الطاقات االشاعرية

**لكن الدعوة إلى الانسلاخ التام عن الماضي وإلى بداية جديدة ليست جديدة، في حد ذاتها. العكس هو الصحيح، إذ أن هذه الدعوة إلى التجديد راسخة عميقا في التقاليد ـ تقاليد الشعر الحديث بوجه عام، والعبري الجديد (أي، الحديث) منه بوجه خاص. والدعوة الراديكالية التي يطلقها حسان، بعيدا عن تقاليد الشعر العبري ـ الأشكنازي، تنضم عمليا إلى دعوات مماثلة إلى رفض الماضي وتطليقه، إلى إحداث الهزات والثورات في تاريخ الشعر العبري ـ الأشكنازي. وفوق هذا، فإن المنطق الأساسي في الأدب العبري الحديث برمّته، كما القومية اليهودية التي كانت مرتبطة به منذ البداية، جسّد صدعاً من التاريخ اليهودي التقليدي القديم ـ الحديث، بما فيه من نصّيّة دينية وتأسيس لـ«ثقافة» قومية جديدة.**

ـ السياسية الكامنة فيها: «عرص الشاعرية» هو شعر يطرح نزعاته وهمومه، شعر موضوعه الأساس هو الفن (ars باليونانية)، لكن الـ«ألف» في اسم المجموعة بالعبرية استبدُل بـ«عين» فتحوّل الفن إلى «عرص»، وهي كلمة متداولة بالمحكية العبرية مصدرها اللغة العربية، يُقصَد بها القوّاد أو المجرم، وهو وصف ألصِق في المجتمع الإسرائيلي بالرجل الشرقي غير المتحضر، الفظ، الهمجي والعنيف ـ وصف أصبح علامة مميزة لوصم المشرقية بوصفها غريبة عن الوسط الاجتماعي الموقر والمقبول. وقد كان استخدام كلمة «عرص» لوصف الشعراء أنفسهم فعلا نموذجيا من إعادة التمثّل بوصف تحقيريّ وشحنه بشعور الكبرياء الاجتماعية. لكن المزاوجة بين التعبير الاجتماعي ـ سياسي «عرص» وتعبير الشعر الانعكاسي، شعر الفن، «آرس» ـ وهي مزاوجة قائمة على جناس صوتيّ ـ تفيد بأن التقييم الجمالي للشعر، أيضا، لا يستطيع إغفال البحث السياسي في علاقات القوة الاجتماعية. وأكثر من هذا، تفيد هذه المزاوجة بين التعبيرين بأن المضمون الاجتماعي هو جزء أساسي من المحمولات الشعرية وبأن لا فنّ («آرس») ـ حتى لو كان يونانيّ المصدر وأوروبيّ المقاصد والنزعات ـ بغير الـ«عرص» العربي، الذي أقصي خارج الثقافة، بينما يعود إليها الآن متحدّياً ومُغيِّراً. وبهذا المعنى، تدعو مجموعة «عرص الشاعرية» إلى اعتبار الشعر العبري الراهن جزءا من الشرق ـ أي، ليس من داخل، بل في مواجهة، تاريخ الأدب العبري الحديث بكونه أدبا أشكنازيا (غربيا)، أدب اليهود الذين عاشوا في شرق أوروبا أو وسطها في نهاية القرن الـ ١٩ وبداية القرن الـ ٢٠، أدب أولئك الذين هاجروا من هناك إلى فلسطين خلال النصف الأول من القرن الـ ٢٠، أو أدب أجيالهم اللاحقة.

في قصيدة نشرت في إحدى الصحف قبل بضع سنوات ونالت شهرة واسعة، كتب روعي حسان، أحد كبار شعراء مجموعة «عرص الشاعرية»: في دولة أشكناز / ينوّر اللوز / في دولة أشكناز ينتظرون ضيفاً / لا شريكاً». وقد كُتبت هذه القصيدة نقضاً ساخراً لقصيدة عبرية معروفة جدا، بفضل تلحينها أيضا، كتبتها لينا غولدبيرغ، الشاعرة العبرية (الأشكنازية) المعروفة والمحبوبة. وهي قصيدة تحكي فيها الشاعرة عن وطنها الشرق أوروبي، «بلدي الحبيب». في إعادة الكتابة الشعرية، يحدد حسان الدوائر الحصرية للشعر العبري بمصادره الأوروبية المغلقة، أي التقاليد الشعرية العبرية التي لا تتقبله ولا ترتضيه في صفوفها، كشاعر شرقي من الجيل الثاني للمهاجرين من المغرب. إنها دولة إسرائيل المتحوّلة، بتعبير حسان، إلى «دولة أشكناز»، دولة الهيمنة الأشكنازية، دولة تتشبث بمصادرها الأوروبية وتقصي العربية والعروبية من بين ظهرانيها. ثم يواصل حسان، في هذه القصيدة، ويقول إنه درج في الماضي على كره الشعر والشعراء «لأنهم لم يخبروني بأن شطريت وبيطون ودادون وحاتوكا / يكتبون الشعر أيضا / ورغم هذا، أقمت لنفسي مكتبة / من الشعر والأدب الأشكنازيين / وكملحد يقرأ نصوصا مقدسة / كي أتعلم كيف لا أفكر / هكذا قرأتها كلها / كي أتعلم كيف لا أكتب / لم أعلن الحداد على كانيوك / أحرقتُ كتب ناتان زاخ / ولا أحيي الاستقلال / حتى تقوم لي دولة». إنها قصيدة الاستهلال، ليس بالنسبة إلى حسان وحده، بل للمجوعة كلها. قصيدة تقوم على قوة النفي الكبيرة: إنه يدعو إلى الانسلاخ التام عن الراهن الإسرائيلي، عن التقاليد الأدبية العبرية، عن أدبائها وشعرائها، ويوضح على مَن لا يجوز الحِداد ومَن لا تجوز قراءة أعماله. إنه يأخذ مكتبة الأدب العبري، لا ليسكن فيها ويستقر، ليقرأ منها، ثم ليضيف إليها نتاجَه ويغيّرها. فهو ليس

روعي حسان.

معنيا بتغيير هذه المكتبة، بل بهدمها. من قلب هذا الدمار، يرغب حسان في وضع شروط مؤسسة لـ («آرس ـ») شاعرية جديدة.

لكن الدعوة إلى الانسلاخ التام عن الماضي وإلى بداية جديدة ليست جديدة، في حد ذاتها. العكس هو الصحيح، إذ أن هذه الدعوة إلى التجديد راسخة عميقا في التقاليد ـ تقاليد الشعر الحديث بوجه عام، والعبري الجديد (أي، الحديث) منه بوجه خاص. والدعوة الراديكالية التي يطلقها حسان، بعيدا عن تقاليد الشعر العبري ـ الأشكنازي، تنضم عمليا إلى دعوات مماثلة إلى رفض الماضي وتطليقه، إلى إحداث الهزات والثورات في تاريخ الشعر العبري ـ الأشكنازي. وفوق هذا، فإن المنطق الأساسي في الأدب العبري الحديث برمّته، كما القومية اليهودية التي كانت مرتبطة به منذ البداية، جسّد صدعاً من التاريخ اليهودي التقليدي القديم ـ الحديث، بما فيه من نصّيّة دينية وتأسيس لـ«ثقافة» قومية جديدة. ولهذا، فحين يدعو روعي حسان إلى بداية جديدة ويطالب بإزالة قيود التاريخ عن الشعر العبري، فإنما يقتفي إحدى الإشارات الاستطرادية المعروفة جدا في تاريخ هذا الشعر، وهي إشارة تتيح له الدخول إلى عوالم تاريخ هذا الشعر. ويبدو تمرده هذا حداثيا تماما: أسلوبه الشعري ـ رفض الشكلانية الشعرية، بلغتها اليومية، باستعاراتها المحدودة ـ يماثل، بصورة متعمدة، أسلوب الشعر الأشكنازي الذي يرغب في الانفصال والتميز عنه، وخاصة شعر ناتان زاخ، الذي دعا إلى إحراق كتبه. لغته معلمنة ومعاصرة جدا. وهو في قصيدته هذه يقرأ، كإنسان ملحد، في الكتب المقدسة للتعرف على الأحكام والوصايا التي يتعين عليه عدم الالتزام بها وتطبيقها. وبالفعل، فإن الانقطاع التام عن الماضي والمطالبة بالجديد المطلق ـ الذي يتبين أنه، في الحقيقة، تجسد غير واع للدينيّ ـ يشكلان خطوة معلمنة خالصة. (مقابل هذا الشعر، يجدر التذكير لماماً بتجارب شعرية أخرى لشعراء مشرقيين آخرين، مثل حفيفا بدايا ويعقوب بيطون، يستخدمون في قصائدهم لغة لاهوتية يهودية، لا تقوم على صدع العلمنة وليست «جديدة» فقط وبالضرورة. وهم يطرحون، بهذا، تحديا حقيقيا أمام الشعر العبري الذي يُكتب اليوم، وأمام تاريخ الأدب العبري الحديث بوجه عام).

وعلاوة على هذا، يستخدم شعراء «عرص الشاعرية»، على نحو واسع وناجع، التقنيات الحديثة ـ شبكات التواصل الاجتماعي، وخاصة الفيسبوك، حيث ينشرون قصائدهم بكثرة، بل وتدور نقاشات حادة حول مستواها، قيمتها ومعانيها. ثمة لهذه المنظومة ذات القوة الهائلة تأثير غير قليل على صورة هذا الشعر: فالمساهمات فيها تمتاز بالاقتضاب والإيجاز، وهو ما يتناسب حقا مع الشعر الغنائي، لكنها تميل أيضا إلى الواضح، المفهوم، المباشر، الفوري وغير القابل للتأويل. ويبدو أن شعر «عرص الشاعرية» هو شعر إعلاميّ وتواصليّ ـ شعر يبث مضامين جلية، صريحة وغير مبهمة، تُقرأ على عجل وتُفهَم سريعاً، يمكن الاتفاق معها أو معارضتها، على نحو ثنائي لا جَدَليّ، بما يتيح التعبير الفوري عن الإعجاب به أو عدمه (وضع «لايك»). وغير ذلك، قد يكون شعرا أدائيا، يُقرأ بصوت عال أمام جمهور واسع، بحيث يكون واضحا ومفهوما. وهو، بذلك، شعر يقلّص كثيرا ما للقصيدة من بُعد / دور وسيطيّ ـ أي، في الوسط القائم منا بين الكاتب/ ة والقارئ/ة، الفعل المؤجل للكلمات، الفارق ما بين حيز ـ زمن الإلقاء وحيز ـ زمن الاستيعاب. والشعر في «عرص الشعر» هو حديث لأنه، أولا وقبل أي شيء آخر، يرفض هذه الترتيبات والتسويات القديمة ويدعو إلى طرح نمط آخر من «الشعر»: أكثر حداثة، راهناً إلى أقصى الحدود ومنسجماً مع العصر.

الشعر في «عرص الشاعرية» يقوم، إذن، ومنذ البداية، على توتر سياسي ـ شعريّ مبدئي: موقفه السياسي المعلن هو غير قومي، من جهة. روعي حسان ليس مستعدا للاحتفال باستقلال الدولة، وهو يتنصل منها أصلا باعتبارها دولة أشكنازي، أي دولة ليست له. شلومي حاتوكا، شاعر آخر في «عرص الشاعرية»، نشر في إحدى الصحف قصيدته «رسالة إلى شاب من الضواحي»، التي يفتتحها بتصريح مجلجل: «لا تتجنَّد / إنه التمرد / لن تحصل على أي شيء / كل الوعود / محفوظة للبيض». وينهي القصيدة: «خذ هذي السنين الثلاث / أعطِها لقلبك... / أو للعقل، على الأقل / خذ السنين الثلاث للتفكير / للبحث والتمحيص/ للمعرفة / فحتى لو أردت القتال والقتل / فعليك أن تكتشف أولاً / مَن يكون بالضبط / عدوّك». هذه القصائد تطرح، إذن، موقفاً مشرقيا لا يعتبر دولة إسرائيل التسوية السياسية المرغوبة، تلك التي تدير الظهر، حقا، لما تصفه بـ«اليسار الأشكنازي»، لكنها تطرح انطلاقا

**الشعر في «عرص الشاعرية» يقوم، إذن، ومنذ البداية، على توتر سياسي ـ شعريّ مبدئي: موقفه السياسي المعلن هو غير قومي، من جهة. روعي حسان ليس مستعدا للاحتفال باستقلال الدولة، وهو يتنصل منها أصلا باعتبارها دولة أشكناز، أي دولة ليست له. شلومي حاتوكا، شاعر آخر في «عرص الشاعرية»، نشر في إحدى الصحف قصيدته «رسالة إلى شاب من الضواحي»، التي يفتتحها بتصريح مجلجل: «لا تتجنَّد / إنه التمرد / لن تحصل على أي شيء / كل الوعود / محفوظة للبيض». وينهي القصيدة: «خذ هذي السنين الثلاث / أعطِها لقلبك... / أو للعقل، على الأقل / خذ السنين الثلاث للتفكير / للبحث والتمحيص / للمعرفة / فحتى لو أردت القتال والقتل / فعليك أن تكتشف أولاً / مَن يكون بالضبط / عدوّك».**

من ذلك موقف يسار مشرقيّ هامشيّ. ويصرّ حسان وحاتوكا على تبيان أن اليسار السياسي المأسس ـ البرلماني، الحزبي أو غير البرلماني الذي يشمل منظمات المجتمع المدني ـ يتكون، عمليا، من أحفاد مؤسسي الدولة وكل الذين لا يزالون يشكلون النخب الاقتصادية والثقافية فيها. ولهذا، فحتى لو أعلن ممثلو هذا اليسار تمردا أوديبياً ضد دولة آبائهم وطالبوا بإنهاء الاحتلال الإسرائيلي للأراضي التي احتلت في العام ١٩٦٧، بل وبتغيير طابع السيادة الإسرائيلية عموما حتى، فإنما يقومون بهذا بينما يواصلون الاستفادة والتمتع بالترتيبات والتسويات التي تكرس واقع عدم المساواة في دولة إسرائيل. غير أن الشعر في «عرص الشعر» يتجاوب مع الإسرائيلية، من جهة أخرى: مع اللغة العبرية الإسرائيلية، الأسلوب الحداثي، الفلسفة العلمانية لتاريخ الصدع والتاريخ الأدبي للتمرد. إنهم ليسوا مجرد مواطنين إسرائيليين يكتبون الشعر بالعبرية فقط، بل هم أبناء المكان الذين يجيدون استخدام رموز الإسرائيلية الراهنة. والأصداء الواسعة التي يحظى بها هؤلاء الشعراء ـ كما تعكسها الفعاليات التي ينظمونها وتجتذب جمهورا واسعا، النشر الغزير عنهم في الملاحق الأدبية (خاصة، وليس صدفة، في الملحق الأدبي لصحيفة «هآرتس»، المعروفة بارتباطها مع «اليسار الأشكنازي») والاهتمام الإعلامي الواسع الذي يحظون به بشكل دائم، أوسع بكثير من الأوساط الأدبية ـ تدل، جميعها، على تفاعلهم مع الأنساق الاجتماعية والثقافية الراهنة في المجتمع الإسرائيلي. ومن هنا، فإن شعر «عرص الشاعرية» يتحدى بعض فرضيات الأساس في الكينونة الإسرائيلية الراهنة ويستجيب لها، في الوقت ذاته.

ويظهر هذا التوتر، بالصورة الأكثر مبدئية وربما الأكثر أهمية أيضا، في موقف شعر «عرص الشاعرية» حيال القضية العربية. والقضية العربية التي أقصدها هنا هي بالصورة الأوسع ـ النضال الفلسطيني، الاحتلال الإسرائيلي ومستقبل إسرائيل / فلسطين، بالطبع، ولكن أيضا مسألة الثقافة العربية التي لدى الشرقيين في إسرائيل، مكانة اللغة العربية في إسرائيل ووجود إسرائيل في محيط جيو ـ سياسي عربي. هذا الفهم لمسألة العروبة في إسرائيل هو، في حد ذاته، ثمرة جهد سياسي وثقافي بذله مفكرون، مبدعون ونشطاء مشرقيون خلال الثمانينات والتسعينات، إذ قالوا إنه من غير الممكن مقاومة انعدام المساواة الإثنية في المجتمع اليهودي في إسرائيل، أي بين الأشكناز والمشرقيين، من دون ربطه بالنضال ضد واقع تعريف الإسرائيلية بكونها نفي العروبة، وهو ما يتطور إلى محاولة إقصاء العروبة الفلسطينية، والفلسطيني/ة ذاته/ا، من مجالها وإخفائه. هذا المسلك الراديكالي كان يسعى إلى إعادة إحياء العروبة المحظورة والمكبوتة، لكن التي لا تزال محفورة في حياة إسرائيليين يهود هاجروا من دول عربية ـ إعادة إشهار الوجود اليهودي ـ العربي، ثانية، ليس فقط كذكرى لصيغة هوياتية زالت من الوجود، بل كاحتمال حاضر وراهنيّ أيضا لوجود يهودي في الفضاء العربي (لكنه، في هذه الحالة، ليس وجودا توطّنيا كذاك اليهودي ـ الأوروبي). الشعر المشرقي في تلك السنوات كان أحد الفضاءات التي جرى البحث، من خلالها، في الخيار اليهودي ـ العربي، على ما فيه من دلالات وتداعيات سياسية وثقافية. وهكذا، كان بإمكان سامي شالوم ـ شطريت الإصرار في العام ١٩٩١، في قصيدته «مَن هو اليهودي وأي يهودي هو»، على تعريف ذاته بأنه

**ويظهر هذا التوتر، بالصورة الأكثر مبدئية وربما الأكثر أهمية أيضا، في موقف شعر «عرص الشاعرية» حيال القضية العربية. والقضية العربية التي أقصدها هنا هي بالصورة الأوسع ـ النضال الفلسطيني، الاحتلال الإسرائيلي ومستقبل إسرائيل/فلسطين، بالطبع، ولكن أيضا مسألة الثقافة العربية التي لدى الشرقيين في إسرائيل، مكانة اللغة العربية في إسرائيل ووجود إسرائيل في محيط جيو-سياسي عربي. هذا الفهم لمسألة العروبة في إسرائيل هو، في حد ذاته، ثمرة جهد سياسي وثقافي بذله مفكرون، مبدعون ونشطاء مشرقيون خلال الثمانينات والتسعينات، إذ قالوا إنه من غير الممكن مقاومة انعدام المساواة الإثنية في المجتمع اليهودي في إسرائيل، أي بين الأشكناز والمشرقيين، من دون ربطه بالنضال ضد واقع تعريف الإسرائيلية بكونها نفي العروبة**

«يهودي ـ عربي» ورفد هذا التعريف بمضمون لغوي وثقافي عيني محدد: كمهاجر من المغرب، وكمواطن في مدينة الضواحي أسدود، كان شالوم ـ شطريت لا يزال يمتلك لغة أخرى، تختلف عن العبرية الإسرائيلية ـ «لغة أسدودية»، كما وصفها، هي مزيج من عبرية المهاجرين والعربيّة المغربية، لغة كان يستطيع استخدامها في قصائده ـ أن يشتم بها، مثلا ـ بينما هو يتحرش بقرائه، جمهور قراء الشعر، بـ«أنا أكتب لكم / قصائد بالأشدودية / كي لا تفهموا كلمة واحدة». وكان بإمكانه، أيضا، إمعان النظر في صورة حاضنته المسلمة في المغرب، ثم العودة إلى طفولته في إسرائيل التي فيها «حاولتُ، عبثا، استعادة محادثة طفل / مع حاضنته، بالعربية المغربية». وعلى هذا، فقد كان الشعر المشرقي لا يزال مرتبطا، في الثمانينات والتسعينات، بالوجود اليهودي في الدول العربية، باللغة العربية كلغة تحدث وتجربة، وبالعرب كمحاورين. ورغم أن هذه الرابطة كانت تمرّ، حقا، بسيرورة تفكك ـ فشالوم شطريت لا يفلح في استعادة المحادثة مع حاضنته المغربية والعربية لا تظهر في قصائده سوى في أحيان متباعدة، بينما إسرائيل / فلسطين لم تعد حيز شراكة يهودية عربية، بل حيز فصل وسيطرة ـ إلا أن هذه الشعر يطمح، انطلاقا من خطر اختفاء «العربي» بالذات ومدفوعا به، إلى إعادة هذه الرابطة وتعزيزها، كمشروع مشرقي أيضا، من خلال اللغة والأسلوب الشعريين، الربط بين النضالات وإظهار علاقة وثيقة ما بين الثقافي والسياسي.

أما اليوم، وبعد سنوات طويلة، فقد أصبح شعر «عرص الشاعرية» في مكان آخر تماما: لقد أتمّ الـ«عربي» اختفاءه السياسي من المشهد اليهودي ـ الإسرائيلي، وحيال انهيار عملية السلام والحملات العسكرية المتواترة التي يشنها الجيش الإسرائيلي على قطاع غزة، يبدو أنه عدو، ليس إلا. غير أن الكفاح المشرقي يكتسب زخما واضحا خلال السنوات الأخيرة ـ في الخطاب العام، في وسائل الاتصال الجماهيري وفي الشعر ـ وهو يتضمن استعادة لحظات من ثقافة المشرقيين العربية المكبوتة واستحضارها في الحياة العامة الإسرائيلية. لكن اختفاء الـ«عربي» السياسي وظهوره الثقافي المتجدد لا يتاحان إلا من خلال الفصل بين المشروع الثقافي والمشروع السياسي ـ أي، إفراغ النضال الثقافي المشرقي من البُعد الفلسطيني الذي كان جزءا منه في الماضي. وهكذا، فحتى قصيدة الاحتجاج التي كتبها حاتوكا ضد الجيش والعسكرة تخلو من العربي المغيب عنها: يدعو حاتوكا فتى من الضواحي إلى تخيّل عدوّ آخر، دون تسمية العدو الحالي الذي يتعين عليه استبداله. ودولة إسرائيل، لدى روعي حسان، هي «دولة أشكناز» لكنها ليست دولة صهيونية. في المقابل، وبعد جيل إضافي آخر، تفككت علاقة الثقافية المشرقية بالعروبة بصورة شبه تامة وكل ما تبقى الآن ليس سوى الاستعادة أو الحنين. هكذا تكتب عادي كيسار، مؤسسة مجموعة «عرص الشاعرية»، عن جدتها التي هاجرت إلى إسرائيل من اليمن: «ولا مرة فهمت / أية كلمة مما قالت / جدتي / لكنّي فهمت يديها / فهمت لحمها / رغم أنها ولا مرة / فهمَت حقاً / كلماتي / أحبّت جسدي الصغير فقط / جسد ابنة ابنتها». هذه العلاقة اللغوية بين الشاعرة، التي تتحدث العبرية، وجدتها التي تتحدث العربية، انقطعت تماما ولا تستطيع إحداهما فهم الأخرى. عملية النقل والتسليم بين الأجيال تشوشت ولم يبق سوى الحب الصامت، جسداً لجسد. ذلك لأن

**أما اليوم، وبعد سنوات طويلة، فقد أصبح شعر «عرص الشاعرية» في مكان آخر تماما: لقد أتمّ الـ«عربي» اختفاءه السياسي من المشهد اليهودي - الإسرائيلي، وحيال انهيار عملية السلام والحملات العسكرية المتواترة التي يشنها الجيش الإسرائيلي على قطاع غزة، يبدو أنه عدو، ليس إلا. غير أن الكفاح المشرقي يكتسب زخما واضحا خلال السنوات الأخيرة - في الخطاب العام، في وسائل الاتصال الجماهيري وفي الشعر - وهو يتضمن استعادة لحظات من ثقافة المشرقيين العربية المكبوتة واستحضارها في الحياة العامة الإسرائيلية. لكن اختفاء الـ«عربي» السياسي وظهوره الثقافي المتجدد لا يتاحان إلا من خلال الفصل بين المشروع الثقافي والمشروع السياسي - أي، إفراغ النضال الثقافي المشرقي من البُعد الفلسطيني الذي كان جزءا منه في الماضي.**

هوية الشاعر/ة المشرقي/ة استقرت، في هذا الجيل، على نمط الإسرائيلية المهيمن - إسرائيلية يهودية تتكلم العبرية فقط. ومن قلب هذه الهوية الإسرائيلية، بالذات، كما تمثلها شعراء «عرص الشاعرية» - دون لغة أسدودية، دون ذكرى الحاضنة المسلمة من المغرب - تنطلق احتجاجات هؤلاء الشعراء. كثيرون منهم يُهدون قصائد غير قليلة لجدّاتهم، التي تمثل الجيل الأخير من حياة اليهود في الدول العربية. لكن هذه الإهداءات لا تعبر سوى عن بُعد هؤلاء الشعراء عن ذلك الجيل - في نمط الحياة، في الثقافة وفي اللغة، وهو بُعد يخلق حنيناً تبقى دلالاته السياسية غامضة. وبهذا، فإن في وسع العروبة، كعنوان للحنين الثقافي، ليس شق الطريق نحو سياسة تحرر عربي وفلسطيني فقط، بل تعريجها وإعاقتها أكثر فأكثر.

الشعر المشرقي الحديث يتخبط الآن في هذه المعضلة: في واقع التعصب القوموي اليهودي المتصاعد، النظام اليميني غير المهزوم، الحرب المتواصلة ضد الفلسطينيين استنادا إلى «الحرب ضد الإرهاب» الدولية، لم يعد في مقدور شعر الاحتجاج المشرقي، الذي يرغب في تحقيق أصداء واسعة في الحياة العامة الإسرائيلية، مواصلة الارتباط بالقضية الفلسطينية التي تواجه الإنكار، التنكر والإقصاء. وبالفعل، فإن موقف هذا الشعر الحازم ضد «النخبة الأشكنازية» أو «اليسار الأشكنازي» يؤخذ، في كثير من الأحيان، على أنه موقف يميني خالص. وليس من الواضح، إطلاقا، مدى الاستعداد، في المناخ السياسي الإسرائيلي الحالي، «لإصلاح» هذا الخطأ، أو مدى الحقيقة التي ينطوي عليها، في نهاية المطاف. وعلى أية حال، تبدو اللقاءات التي يعقدها بعض شعراء «عرص الشاعرية» مع وزيرة الثقافة الحالية، ممثلة الشق الصقري في حزب «الليكود»، ميري ريغف، شيئاً كان من الصعب تخيله في جيل الشعراء المشرقيين السابق، الذي حرص على إقامة أطر مشرقية راديكالية جديدة: «القوس الديمقراطي الشرقي»، حزب «تامي» أو مدرسة «كِدما». لكن تلك الأطر منيت بالفشل في نهاية الأمر. أما الارتباط بالسياسة القوموية اليمينية ذات الأجندة المشرقية، كتلك التي تطرحها الوزيرة ريغف، فقد يتيح إحداث تغييرات بعيدة الأثر في تمويل أنشطة ثقافية في إسرائيل خلال السنوات القريبة القادمة، ثم في صورة وطابع الفعل الثقافي في إسرائيل في المستقبل المنظور، تاليا. هذا ما تصرح به الوزيرة نفسها وثلة مستشاريها الجدد - غالبيتهم من النشطاء المشرقيين واليساريين، مثل الشعراء - الذين يتعهدون بأن الانحياز التفضيلي الفظ في تمويل الثقافة الغربية أو الأشكنازية (وحتى الانتقادية حيال السياسات الحكومية الإسرائيلية، أحيانا)، والمكرس منذ عشرات السنين، سوف يتوقف في الوقت القريب، إذ سيتم رصد ميزانيات كبيرة لتمويل فعاليات ومؤسسات ثقافية مشرقية في الضواحي (شرط أنها لا تمس بالدولة ومنظوماتها القيمية). وإذا ما تحقق هذا فعلا، فسيمنى نموذج الـ«يهودية - عربية»، الذي انتشر في التسعينات، بفشل ذريع وسيتبدد، نهائيا، أي ارتباط بين نضال الثقافة المشرقية والنضال الفلسطيني: في دولة كهذه، سيطرأ تحسن ملحوظ في مكانة الثقافة المشرقية، بينما يزداد وضع الفلسطينيين تحت السيطرة الإسرائيلية - سواء في مناطق ١٩٦٧ أو المواطنين في مناطق ١٩٤٨ - تدهورا. ستكون هذه «دولة أشكنان» أقل، فيما يُلزَم جميع الواقعين تحت سيطرتها بإحياء ذكرى استقلالها.

**[مترجم عن العبرية. ترجمة: سليم سلامة]**